

عنوان المقال: تجليات الشخصيات  
الأجنبية النافذة للمناسبات الدينية  
والبروتوكولات الرسمية العثمانية  
بالجزائر خلال فترة الدّيات

الكاتب: ط.د/يوسف بوسعدة  
جامعة سوسة / تونس  
أ/ عبد القادر عزام عوادي  
جامعة الوادي/ الجزائر

salahdinayouby.2014@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/05/15 تاريخ القبول: 2020/06/06 تاريخ النشر: 2020/06/30

تجليات الشخصيات الأجنبية النافذة للمناسبات الدينية والبروتوكولات الرسمية  
العثمانية بالجزائر خلال فترة الدّيات

الملخص:

تزخر الجزائر مُجتمعاً وسلطة على غرار دول العالم بالعديد من المناسبات الدينية و البروتوكولات الرسمية خلال الفترة العثمانية، وتعتبر هذه المناسبات بمثابة أعياد للسكان تُطلق فيها العنان للأفراح عاكسة قدسية ومكانة المناسبة في نفوس الرعية. والسلطة العثمانية لم تكن بعيدة عن هذه المناسبات الدينية باعتبارها تمثل الخلافة الإسلامية، فهذا كان لزاماً عليها إحيائها وتأطيرها، وبما أنّ إيالة الجزائر تُعتبر جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الدولي، فقد تواجد فيها قناصل وشخصيات أجنبية نافذة شكلت مع المجتمع الجزائري تنوعاً اثنيًا ودينيًا، ما نتج عن كتاباتهم قريحاً للحدث، وأعطت لنا انطباعاتهم صوراً أجنبية مختلفة عن باقي الكتابات، ولهذا حاولنا رصد ملاحظاتهم حول هذه المناسبات والبروتوكولات الرسمية المتعلقة بهم، فوجدنا أنها تحمل في طياتها استحساناً وفي بعض الأحيان تقبلاً وفي غالب الأحيان كثيراً من التمرد والرفض.

Summary:

Algeria has a community and authority similar to the world's countries with many religious events and official protocols during the Ottoman period, and these events are considered as celebrations for the inhabitants, in which they give free rein to sacred verses and the suitable place in the care of the people. The Ottoman authority was not far from these religious occasions as representing the Islamic

caliphate, so it had to revive and frame it, and since the Algerian people were an integral part of the international community, there were foreign consuls and figures who formed with Algerian society an ethnic and religious diversity, resulting in their writings being close to the event. Their impressions gave us foreign images that were different from the rest of the writings, so we tried to monitor their observations on these official occasions and protocols, and we found that they were very much welcome and sometimes receptive and often often far from rebellion and plunder

#### المقدمة:

يعتبر موضوع المناسبات الدينية والبروتوكولات الرسمية من المواضيع المهمة التي نفسر في سياقاتها العديد من ممارسات السلطة، وهذه التفسيرات تعتمد على المادة المصدرية ونظرتها للحدث، ومن هذه المصادر الحساسة والمهمة التي نعتد عليها مذكرات ومراسلات الشخصيات الأجنبية النافذة، سواء تعلق الأمر بالقناصل أو المبعوثون من طرف حكومات أجنبية للتفاوض على مصالحهم، أو المستكشفين العلميين الموصون تحت غطاء حكومي وحماية السلطة العثمانية، أو من خلال شخصيات أجنبية تقلدت مناصب إدارية عليا في الإيالة، وسنحاول في ورقتنا العلمية أن نجتمع تلك الإشارات والانطباعات التي تركها لنا هؤلاء خلال فترة محدّدة امتدت من سنة 1671-1830 والتي اصطُح عليها بفترة الدّابات. ومن خلال ملاحظتنا على مدوّناتهم وجدنا أنها كانت تشمل العديد من التفاسير والتحليلات وحتى أدوار مهمة متعلقة بمصالحهم خلال المناسبات الدينية خاصة بما تعلق الأمر بشهر رمضان الكريم ومناسبة عيد الفطر والأضحى، وبما أن وفود هؤلاء إلى الجزائر كانت تضبطهم بروتوكولات السلطة العثمانية بالجزائر، وجدنا أن لهم تجليات حول عدّة مراسيم كالاستقبال حين الوصول والعدادات المتعلقة بالقصر والبروتوكولات الرسميّة فيه.

وهو ما يدفعنا لطرح الإشكال الآتي: ما هي تجليات المناسبات الدينية والبروتوكولات الرسمية في كتابات الشخصيات الأجنبية النافذة؟ وماهي أدوارهم فيها؟

## 1. تمثّلات الشّخصيات الأجنبية النافذة للاحتفالات الدينية :

## 1.1 شهر رمضان المعظم :

يعتبر شهر رمضان المعظم من أركان الإسلام بالنسبة للمسلم وأدائه تقرب من الله سبحانه وتعالى، ولهذا كان المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات الإسلامية يمثل لفرائض وسُنن هذا الشهر الكريم، وترجع عظمة هذا الشهر في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ ( القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 185)، وقد كانت السلطة العثمانية تُصبغ على هذا الشهر نوع من التّفَرّد في الطابع العام المألوف طيلة أحد عشر شهرا في السنة، وكان يتمّ الإعلان عنه بإطلاق مائة طلقة من مدفع كبير وتوقد مصابيح كثيرة فوق منارات المساجد، ويرفع المؤذن الراية البيضاء فيدعوا بعدها لإقامة الصلاة (دودو، دت، ص 67)، كما هو شهر الحلويات والضيافة والأفراح عند الجزائريين لكن الحفلات الوحيدة الصاخبة التي نقلها الاتراك العثمانيين الى الجزائر هي حفلات القرقوز التركي وكان يحضره مئات الاشخاص ويتم بعد الافطار (هاينريش 1976، ج 3، ص 63)، وهو ما أعجب المفاوض الأمريكي جيمس كانكارت<sup>1</sup> بأجوائه التي شبه لياليه بالأعراس ( كانكارت، 1982، ص 252)، وهذا الخروج عن المألوف الذي تراءى لدى المفاوض يدفعنا إلى مزيد من التقصي في تمثّل هذه المناسبة عند بعض الشخصيات النافذة فوجدنا:

أولا: تغيّر دوام العمل خلال المناسبة: لامتناع المسلم عن الأكل والشرب من طلوع الفجر إلى حين غروب الشمس أثر على مردوده اليومي، وهو ما لاحظته العالم الألماني المبعوث هابنسترايت<sup>2</sup> في أنّ فئة كبيرة من مجتمع مدينة الجزائر كان يؤجل سائر أعماله إلى الفترة الليلية بدافع تجنّب الإرهاق ( هابنسترايت، د ت، ص 48)، ويبدو أنّ هذا التحوّل في الدوام اليومي لم يكن مقتصرًا على الرعيّة بل حتى السّلطة التي كانت تتجنب الدوام الصباحي، وهو ما أثار حفيظة المفاوض الأمريكي كانكارت حيث طلب إذنًا من الدّاي في 5 مارس 1796 لمقابلة مواطنه المبعوث الأمريكي بارلو لأجل مفاوضات بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيالة الجزائر، إلا أن الباشا استغل مناسبة شهر رمضان فرفض اللقاء إلى غاية الانتهاء من هذه الفريضة، ما علّق عليه كانكارت قائلا: " وأنا أعتقد أنه لو لم يكن الوقت وقت الصيام لرضي الدّاي باستقبال بارلو، على الأقل ليمتّع نفسه بشتمه وتهديده"، ولقد كان مجتمع مدينة الجزائر في غالبيته يعتقد بالعمل خلال شهر رمضان على وتيرة معيّنة حتى لا يرهق صحته، وخاصة وأن

هذا الشهر هو شهر عبادات من المسلم ما يستلزم منه جهدا بدنيا ونفسيا (كانكارت، 1982، ص 252).

ثانيا : التزام الجزائريين بشهر رمضان: حرّرت عدة ملاحظات من الأجانب حول تمسك الجزائريين بصيام شهر رمضان المعظم، لكن العالم الألماني أشار إلى فئة أخرى قد يصعب عليها ذلك نظرا لظروفها، وهم المدمنين على شرب الخمر الذين حسب إفادته استطاعوا أن يقاوموا نفستهم بالصوم طيلة ثلاثين أو تسع وعشرين يوما (هابنسترايت، د ت، ص 48)، ويظهر التزام هذا الصنف بالصيام على أهمية المناسبة وقديسيته في نفوسهم. وهو ما يتجلى أكثر في العادة التي كانت تدفع بالرعية إلى الجهاد ومحاولة تحرير وهران ابتغاء الشهادة والأجر المضاعف حيث كان يقوم بها الجزائريين في شهر رمضان من كل سنة كما يذكر ذلك خزناحي الباي تيدنا<sup>3</sup> (احميدة، 2003، ص 72)، وما يزيد تأكيدا لهذا السلوك هو ما نوّه إليه العالم الألماني هاينريش<sup>4</sup> بارتباط الجزائريين بالدين وتعاليمه وتبين ذلك أكثر حين امتحن الجزائريين في دينهم أثناء الاحتلال الفرنسي (السعيد، 2013، ص 88).

## 2.1 مناسبة عيدي الفطر والأضحى:

يعتبر عيدي الفطر والأضحى من المناسبات البالغة الأهمية لدى الجزائريين في العهد العثماني، حيث كانت هذه الأعياد تدعى بيرامات Bayrams وهي كلمة تركية الأصل خاصة بالعطلة الدينية، فالعيد الصغير الذي يأتي بعد رمضان يُدعى سكر بيرام Seker Bayram وسَيّ بهذا بسبب تبادل الهدايا فيه خاصة تلك القطع الصغيرة من الحلويات المصنوعة من السكر، أما عيد الأضحى فيدعى العيد الكبير ويدعى بالتركية Kurban Bayram أو كيوك بيرامي Kuyuk وقد كان من أكبر المناسبات أهمية بين المناسبات الدينية ومعناه الحرفي كما يذكر سبنسر: "عيد المسلم الكبير للتضحية وهو عيد الأضحى أو العيد الكبير لدى عالم المسلمين، ويحتفي فيه بذكر التضحية المقدسة من قبل إبراهيم بكبش بدل ابنه اسماعيل" (سبنسر، 2006، ص 120).

وأما عن عيد الفطر فكان الإخبار به يقع على عاتق السلطة فبمجرد رؤية هلال العيد ينقل الخبر إلى الداي، فيأمر بدوره بإطلاق المدافع إعلانا بانتهاء الشهر المعظم وحلول عيد الفطر، وللعديد من مراسيم متبعة خاصة على السلطة إذ كان الداي يستقبل التهاني من أعضاء ديوانه والقناصل وكذا الرعية في دار إمارته (هابنسترايت، د ت، ص 48)، حيث كان القصر تصفف

فيه موائد الغذاء من مختلفة الأطعمة ويبرئ بشكل كما يذكر القنصل الأمريكي شالر<sup>5</sup> يُوحي على مظاهر البهجة والسرور (شالر، 1982، ص 67)، وعلى رأس هذه الموائد كان الداي يجلس لبلاسه الرسمي على كرسيه المغلف بجلد نمر ويحيط حوله أعضاء الديوان (هابنسترايت، د ت، ص 49)، وكما أشرنا سابقا أننا نركز في موضوعنا على انطباعات الشخصيات النافذة ودلالات هذه المناسبة لديهم، وقد استطعنا أن نستنج العديد منها وهي:

أولاً: مناسبة العيد فرصة لتحقيق المصالح الدبلوماسية: وقعت حادثة طريفة في قصر الإمارة بين القنصل الفرنسي والإنجليزي، حين تسابق القنصلان على سلالم القصر بغية الحصول على الأولوية في مقابلة الداي بمناسبة العيد، فما كان من القنصل الإنجليزي فالكون Falkon إلا أن يحمل القنصل الفرنسي ويعيده إلى مدخل القصر ويحظى هو بالأولوية في مقابلة الداي (Bardoux, 1924, P266)، ويتبين لنا من خلال هذه الحادثة الطريفة بشكلها، العميقة في محتواها، بمدى أهمية المناسبة على القناصل الذين بُعثوا إلى إيالة الجزائر من أجل حماية رعاياهم وامتيازات بلدانهم، إذ كانوا يستغلون أية فرصة سانحة لتحقيق أهدافهم، وتكون زيارتهم عادة محمولة بهدايا ثمينة للدَّاي فهي كما يذكر المفاوض الدبلوماسي فونتير Venture<sup>6</sup> في القنصلية الفرنسية بالجزائر: "الطريقة الوحيدة لتهنئة الأمور بين الإيالة والدول الأجنبية" (Venture, 1898, p133)، ويبدو أن الأطر المعروفة حينها في المجتمع القنصلي بالجزائر عن كيفية الحفاظ أو كسب الامتيازات هي الهبات الثمينة التي تقدم للسلطة الجزائرية، فحين عين السيد فيليب فالير Philippe vallièr (1791-1796) في الجزائر قنصلاً عاماً لفرنسا سنة 1779 م، ذكر مقولة مهمة جداً فحواها أن: "هناك نوعان فقط من وسائل العيش في الجزائر... بالمال أو بالقوة؛ الأول لا يزال فعالاً ولا مفر منه أما الثاني فيمكن تأخير" (Plantet, 1930, p28)، لكن لتقديم هذه الهدايا في أوقات محدّدة دلالات وتأثيرات في المسار الدبلوماسي، وبهذا كانت مناسبة مثل العيد تستغل دائماً لأجل كسب ود ورضا الباشا، ولقد تفنّن الفرنسيون كثيراً في ذلك وهذا بشهادة جيمس كانكرارت بقوله: "والهدايا التي تقدم تشمل أنواعاً من اللحوم والفواكه المحفوظة والطازجة والمربى وغير ذلك من المسليات التي يعرف الفرنسيون كيف يجعلون أنفسهم مقبولين لدى الغير بواسطتها" (كانكرارت، 1982، ص 41)، كما أن الهدايا لم تكن تمنح للباشا فقط، بل كانت تشمل شخصيات نافذة في السلطة ولهم مكانة، وهم عادة يتكونون من الكتاب الأربع والخزناجي

ورئيس الطبّاخين وكذا الأغا (Grammont,1890,p172)، وقد يصل عددهم في بعض الأحيان إلى 25 شخصية على غرار الباشا، ويخبرنا القنصل جين بوم Jean baume (1717-1719) عن سبب تقديم الهدايا لمثل هذه الشخصيات حيث يرى أنّ الداي: "ليس هو السيد الذي يقرر بنفسه، فيوجد دائماً في وسط مجلس من نوع ما، يرشده وفقاً لشغفه، والذي لا يمكن أن يكون لحركات القنصل تأثير عليه إلا إذا أثّرنا على الديوان"، أمّا عن نتيجة هذه النفقات والتي حدّدها بأنها يجب أن تنفق في مناسبات خاصة تكمن في كونها تُلزم السّلطة بإقامة العدل أو على الأقل تردّ الظلم الذي قد يلحق بفرنسا (Grammont,1890,p136) وتحقق بذلك الفوائد التجارية (شالر، 1982، ص132) و لعلّ أحسن ما يُبرهن به عن أهميّة دور الهدايا في إنجاح العمل الدبلوماسي للقناصل مع السّلطة العثمانية بالجزائر خلال فترة الدايات، تؤكّده أجرة قناصل الدول الأجنبية والمبالغ المخصصة للهدايا التي كانت مرتفعة جداً ما أجبر الحكومة الفرنسية على تغيير سياسة إنفاقها على قناصلها لتحسين أوضاعهم في الجزائر فارتفعت أجرتهم إلى حدود 6000 livres خلال سنة 1692 (Grammont,1890,p2).

ثانياً: استغلال مراسيم المناسبة لدوافع سياسية: من مراسيم العيدين حسبما ذكرنا سابقاً أنه كانت تقدم التّهاني صباح العيد من الرّعية ومختلف الشخصيات النافذة في الإيالة، وكانت التهنئة تتمّ عبر مراسيم نوجزها في قدوم الضّيف إلى حضرة الباشا وإسماعه كلمات التّهاني ثمّ تقبيل يده (سيمون، 1974، ص 76)، وبالتالي نلاحظ أن هذه المراسيم المقتضبة تجعل من الدّاي سهل المنال إن أخذ من مضيفيه فكّر في تنفيذ مؤامرة انقلاب أو اغتيال على الباشا (هابنسترايت، د ت، ص 49)، ورغم وجود عادة في القصر كان ينقّذها شواش باب القصر والتي تقتضي بعدم السماح للضيوف بالدّخول إلى القصر بسيوفهم (Plantet,1930,P202)، إلا أنه وقع خلال عهدة الدّاي حسين آخر دايات الجزائر (1818-1830م) أن استطاع ستة وأربعين انكشاريا الدّخول إلى القصر بخناجرهم بهدف اغتيال الدّاي انتقاماً لزميلهم السّابق وزير الشؤون الحربية المدعو يحي آغا المعدم بناء على أوامر الدّاي حسين وتنصيب قائدهم مصطفى خوجة على العرش (هابنسترايت، د ت، ص 76)، ولم تذكر المصادر كيف تم كشف النقاب عن هذه المؤامرة إذ استطاع الدّاي حسين المحافظة على الحكم إلى غاية دخول الاحتلال الفرنسي في 05 جويلية 1830 كما هو معلوم.

ثالثا: مراهنه السّلة بمناسبة العيد على تعميق نفوذهم: يبدو أنّ السّلة كانت تراهن كثيرا على بروزها وظهورها في مختلف المناسبات على أحسن صورة لها، وتتبعنا لكتابات بعض القناصل لاحظنا أنّ الحكام العثمانيين كانوا يهدفون من وراء مشاهد عديدة كسب الولاءات بإبراز مظاهر القوة والتركيز عليها، بغية التأثير المباشر على الرعايا وحتى الأجانب منهم، ويظهر هذا من خلال ما ذكر القنصل الأمريكي شالر حيث بيّن أن في مناسبة العيد كان حضور القناصل لتقديم تهانيم للباشا يتبع بـ " الشناء على قوته وعظمته " (شالر، 1982، ص 67) ، ولعلّ مثل هذه العبارات لا تبين لنا الهدف الذي نودّ الوصول إليه، لكن كيف نفسر دلالات مشهد القناصل وهم واقفين بين أوساط الرعية أثناء تقديمهم التهاني دون تخصيص مكان أو جهة خاصة بهم؟ بل ما يزيد الأمر غرابة أنّ القناصل والذين هم في واقع الأمر يمثلون دولا لها مكانتها ونفوذها في العالم خاصة خلال بدايات القرن التاسع عشر، لا تقدّمهم قواعد المراسم على أحد بل كان دورهم في تحية الداي يأتي بعد رئيس الزبّالين في مدينة الجزائر (شالر، 1982، ص 67)، فلهذا كان القناصل يبدون حرجهم من مثل هذه القواعد (كانكارت، 1982، ص 32) خاصة وأن المجتمع القنصلي في مدينة الجزائر كان يتمتع بكثير من الأناقة والبذخ (شالر، 1982، ص 106) وبما أنه كان جزء من داخل مجتمع مدينة الجزائر الحاضر هو الآخر في دار الإمارة، يشاهد ويسجل صورا ذهنية منبهة من السلطة وشكلها العجائبي أكثر من حرصهم على تماسكها المنطقي وانسجامها العقلاني، لأن الصورة كما يؤكد ذلك بارت: " تصبح كتابة في نفس اللحظة التي تصبح فيها ذات دلالة " (التايب، 1994، ص 126)، وهو ما يفيد السلطة إذ أن مثل هذه المشاهد تزيد من نفوذهم وعظمتهم في نفوس الرعية وفي نفس الوقت في شخص القناصل، وقد أشار لذلك القنصل الأمريكي شالر حين اعتبر أنّ مثل هذه المراسيم وخاصة تقبيل يد الداي ما هو إلا تثبيت للقناصل على تبعيتهم (شالر، 1982، ص 67) وكذا اعتبر أن الحكومة تعمل ما في وسعها دائما من أجل " إنعاش كبرياء الانكشاري وزهوه " (شالر، 1982، ص 55).

رابعا: واقع الاحتفال بالمناسبة على النسق اليومي للرعية: لقد مثّلت لنا الكتابات الأجنبية أن الاحتفالات بمناسبة العيد كانت تتميز بالاستثنائية والتحرر من إرهاصات الواقع اليومي، وكان الإعلان عن العيد بطلقات المدافع المدوية هو في الحقيقة بمثابة إعلان نظام جديد مغاير عن النسق العادي للحياة وهو ما نلمسه من خروج الرعية والاستمتاع بمشاهدة تلك المبارزات

الرسمية التي كانت تتم بتأطير السلطة العثمانية، وهذا بتهيئة ساحة رملية يتقدم إليها المصارعون بسرّاويل قصيرة مزيّنة وأجسامهم، فيشرع المتصارعون في التباري بعد صلاة العيد والمنصر هو ذاك الذي يطرح منافسه أرضا، وما يزيد المشهد إثارة أن هذه المنافسات قد تؤجل إلى آخر أيام العيد حين لا تحسم النتائج النهائية في يومه الأول للعيد، وحرصا من السلطة على تسليّة الشعب بهدف تغيير في النسق اليومي، كانت هذه المبارزة مصحوبة بأنغام موسيقى تعزفها فرق الانكشارية (هابنسترايت، دت، ص 67) ويذكر عالم الطبيعيات الألماني موريتس فاغنز في رحلته أن فرقا زنجية تجوب أحياء المدينة عازفة أنغام موسيقية صاخبة، بواسطة الطنابير والصفائح الحديدية، وموسيقاهم ذات إيقاع همجي، وتصاحبها حركات الفنانين السود، وتمثيلهم الصامت واهتزازات اجسادهم، منتظرين نقودا يهدى لهم الناس (بن عتو، ع2، ص 87)، كما كانت السلطة هي بدورها تخلل هذه الاحتفالات بعطاءات وهدايا صغيرة للرعية (Venture, 1898, P112) ما يجعل الأجواء مميزة أو كما يقدم لنا نظرتة القنصل الأمريكي شالر بـ "أن كل شيء يدل على السرور والخُبور والاحتفال" (شالر، 1982، ص 67).

## 2. تمثّلات الشخصيات الأجنبية النافذة للبروتوكولات الرسمية:

### 1.2 تقبيل اليد:

من المراسيم التي تعودت عليها إيالة الجزائر في تطبيقها على الرعية هي عادة تقبيل اليد، التي كانت تجبر المتشرف بمقابلة الداي في الأيام العادية و خلال المناسبات الرسمية والدينية سواء كان بايا أو قنصلا أو أي شخصية أخرى بتقبيل يده، كما يبدو أن هذا الإجراء كان يخضع للسلم الإداري حيث كان بايات المقاطعات الثلاث يقبل أيديهم كل زائر قدم إليهم بل هو متلازمة على موظفيه كل بداية دوام عمل في الصباح وهو ما أطلعنا عليه الخزناجي تيدنا (احميدة، 2003، ص 62)، ولقد كان هذا الالتزام مرفوضا جملة وتفصيلا من طرف القناصل خاصة وأنهم اعتبروه إهانة لهم وللأمة التي يمثلونها، ولهذا كانوا ينتحلون المعاذير في بعض المناسبات حتى لا يقوم بمثل هذا الإجراء (شالر، 1982، ص 68)، ذلك أن الغياب كان أهون من الوقوف أمام حضرة الداي ورفض التقبيل، إذ أن الرفض كان يساوي عادة الطرد من مهام الدبلوماسية بالجزائر رغم تمتع القناصل بالحصانة الدبلوماسية وهو ما حدث مع القنصل الفرنسي إيفان Evant (Plantet, 1930, P49)، ولهذا كان القناصل يفضلون أن تُلغى

هذه العادة عن طريق المسار الدبلوماسي كما حدث في إيالة تونس، حين أجاز وزير الشؤون الخارجية الفرنسي للقنصل بتونس المدعو شويل برسالة مؤرخة في 06 ماي 1836 بعدم تقبيل يد الباي حين نصب لأول مرة في البلد، والذي علق عليه وزير الخارجية قائلاً: "الذي يعتبر في حد ذاته نوعاً من الشذوذ" (GrandChamp, 1945, P292)، وأما في الجزائر فقد ألغي هذا الإجراء كما يذكر شالر بُعيد مؤتمر فيينا 1815 بعد ترسيم الأعراف والبروتوكولات الدبلوماسية (شالر، 1982، ص 68).

## 2.2 مراسيم الاستقبال في الميناء:

جرت مراسيم مميزة لاستقبال القناصل ومبعوثهم حين وصولهم إلى ميناء الجزائر، فبمجرد أن ترسو السفينة في الميناء تطلق المدافع واحد وعشرون طلقة على سبيل التحية، وعقب ذلك، يقوم الأسطول أو السفينة الحربية برد التحية بعدد مماثل من الطلقات، وبمجرد نزوله من السفينة إلى البر، تطلق المدافع الواقعة قرب القلعة تحية له بخمس طلقات أيضاً، ونفس الأمر يحدث حين مغادرته إلى وطنه، ويبدو أن هذه التحية كان يستصحبها القناصل والشخصيات النافذة الوافدة، حيث لم يبدو أي ضرر منها، بل في معاهدة بين فرنسا والإيالة مؤرخة في 25 أبريل 1684 وبالضبط في المادة 27 تؤكد الحكومة الفرنسية أسبقيتها وعلو كعبها عن بقية الدول الأخرى بإطلاق أكبر عدد من طلقات البارود (Devoulx, 1872, p83)، وهو ما لم نجده في المصادر حيث تساوت جميع الشخصيات الأجنبية النافذة في طريقة هذا الاستقبال، وما يهمننا أن هذا الإجراء كان مستحسنًا بل مصدر تفاوض بين الدول والإيالة، لكن كان فيه حديث حول ما يعقب وصول السفينة، فحين يرسل القنصل الترجمان من أجل أن يطلب من الداي مقابلته، فيكرم القناصل والمبعوثين حين مجيئهم لطاغم أسطولهم بهدية تتمثل في عجول ودجاج وخبز وفواكه وخضر لمدة ثلاثة أيام، ويرد قنصل الدولة التي يتبعها الأسطول، أو السفينة 40 دولار للتحية ومبلغ 14 دولار في مقابل الهدية، وهذه المراسيم في مظهرها الخارجي كما يصفها القنصل شالر تتميز بالنباله لكن في حقيقة الأمر هي ادعاءات فقط (شالر، 1982، ص 66، 229)، ويتفق معه في ذلك القنصل بنونا لومير Benoil Lemair حيث قال في هذا الصدد: "لا يوجد أقل إذلالاً من أن تقدم لك بعد هذا كله خمس صدقات مقابل جهدك الجهد والمتمثلة في بعض الخيول العربية، التي سيتعين دفع رسوم نقلها إلى فرساي، أو عدد قليل من جلود النمر أو مناديل مطرزة" (Plantet, 1930, P52)، وهذا

ليس الشيء الوحيد الذي يتمتع منه القناصل في بروتوكولات استقبالهم حيث يصادف في بعض الأحيان حين نزول القنصل وتوجّهه إلى مقره، أن تنتظره حشود من الجماهير الفضوليين للتعرف عليه سائرين وراءه كما حدث للسفير الأمريكي دونالد صون حيث عبّر عن ذلك وسيطه بـ " لبروا الى أية فصيلة من الحيوانات ينتهي سفير أمريكي، والقارئ يمكنه أن يدرك الحالة النفسية المنزعجة التي كان فيها دونالد صون" (كانكارت، 1982، ص ص 163)، وهو ما نعتبره في الحقيقة بالشيء الغريب إذ من المفروض مدينة كعاصمة الإيالة تعجّ بالأجانب من مختلف بقاع العالم وتدف إليها شخصيات من شتى المراتب لا تنهر بالوافدين الجدد ويكفي ما فيها من عبيد الولايات المتحدة الأمريكية.

### 3.2 القبة والسيف ... بين التّقبّل والتّدمّر:

يعتبر إجراء خلع القبة والتجرد من السيف حين تمرّ أو تستقبل شخصية نافذة في القصر، من الإجراءات التي وجدنا عليها ملاحظات في مذكرات ورسائل القناصل والشخصيات الأجنبية النافذة، فبمجرد الوصول إلى باب القصر وبعد استلامه الإذن بالسماح له بزيارة الداي، كانت هنالك عدة مراسيم تحدث، وأولها أنه كان يجب عليه حين مروره بجوار قصر الجنيّة أن يلتزم بخلع قبعته، وكان المخالف لمثل هذه البروتوكولات يعاقب عليها (Plantet, 1930, P51)، ولم تبد لنا من الشخصيات الأجنبية النافذة أي امتعاضات من هذا التقليد بل اعتبره العالم الألماني من باب احترام القصر كما اعتبره إجراء أمني، حيث كان مدخل الخزينة قريباً من معبّر المارّة ولهذا كان الجند يأمرّون المارين بنزع قبعاتهم، بل حتى أن الخزناجي والذي كان مساعده من فئة العبيد يأمره بالدخول مجرداً من ملابسه، وكل هذا كما فسّره هابنسترايت من باب الاحتراقات الأمنية (هابنسترايت، د ت، ص ص 39، 42). وبعد أن يحظى المستقبّل بشرف الدخول كان هنالك إجراء آخر أسال الكثير من الحبر بين أقلام القناصل، حيث كانوا يلزمون قبل دخولهم لديوان القصر أن يجردوا من سيوفهم. إلا أن هذا الإجراء لم يكن الدّايات صارمين فيه، ففي كثير من الحالات كان يسمح لبعضهم بالدخول به والآخر فلا، ما جعل صفة التّمرّد تعتلي نفوس بعض القناصل خاصة منهم الفرنسيين كما فعل ذلك القنصل بنوا لومير Benoit Lemair (Plantet, 1930, P202)، لكن نجد أن القنصل الأمريكي شالر قد دخل بسيفه بصفة عادية مع أحد مبعوثي الولايات المتحدة أثناء إجراءات محادثات السلام بين الدولتين، بل يذكر أن الدّاي قد استقبله " بكل لباقة" (شالر، 1982، ص 231)، فهل مثل هذا الإجراء

كان يطبق فقط على القناصل والمبعوثين الأجانب؟ وما هي عواقب مخالفته؟ وإلى ماذا يعود التخبط بين القبول والرفض في دخول القصر بالسيف؟

يعود تدمير القناصل دائما من مثل هذه الإجراءات إلى الحالة النفسية التي يعيشها القنصل في الجزائر وبشكل أخص في مجتمعه القنصلي داخل المدينة، ذاك المجتمع الذي يتسم بالأناقة والبلذخ والخلو من الشكليات، كذلك شخصية القنصل التي عادة ما تكون ذات مكانة وشرف كبيرين، حتى قال القنصل شالر في هذا الصدد: "وإذا شاء القدر ودعتني لشغل منصب غير الذي أشغله حاليا في الجزائر. فسأحزن مدى الحياة لفقد ما أجده من لطف الكرم وسحر العشرة الطيبة" ( شالر، 1982، ص 106)، ولهذا يتدمر القناصل من أبسط الأشياء ويعتبرونها إهانة، رغم أن البايات الذين كانوا يأتون إلى قصر الداي كانوا هم كذلك يجردون من سيفهم وهذا تخوفا من الداي أن تخطر ببال الباي خواطر ثورية لاغتياله ( كانكارت، 1982، ص 118). وأما عن عواقب الرفض فكانت وخيمة فحين رفض القنصل لومير الرضوخ لمطلب الداي بالتجرد من السيف عوقب بعدة إجراءات، فبعد أن تلقى الشتائم والتعنيف حُرِم من تغيير الترجمان الذي يعتبر حقا من حقوقه، كما منع من التواصل مع العبيد الفرنسيين وطالب الداي بتغييره (Venture, 1898, p 202)، وتفس الواقعة حدثت مع القنصل الفرنسي دولان Delane حيث تعرض للإهانة والاحراج في قاعة الاستقبال من طرف الداي أمام الحاضرين بسبب حضوره إلى مجلس الداي بالسيف، وقد هدده الداي قائلا: "أنه إذا تجرأ وأعاد نفس التصرف فلن يلوم إلا نفسه، وقد يقطع رأسه" (بليل، 2001، ص 82).

وسبب تخبط الدايات في هذه المراسيم في الحقيقة يعود أساسا إلى طبيعة العلاقات التي تربط بين البلدين وعادة ما يكون القنصل الواجهة التي تستقبل ردود أفعال مستوى الدبلوماسية بين البلدين، فشالر ومبعوثه حين تم قبولهما بسيفها كان في فترة تعيش فيها الولايات المتحدة علاقة حسنة مع الإيالة، بل واستعانت بالقنصل في إجراءات السلام التي كانت بين بريطانيا وإيالة الجزائر أثناء حملة اكسموث 1816، أما عن الإجراء الذي كان عنيفا مع القنصل لومير فكان نتيجة تواجد فرنسيين في الحامية الإسبانية المتواجدة بوهران وهو ما أثار غضب الداي، وليس كما يدّعيه القنصل نفسه أنه نتيجة عن قلة الهدايا التي قدمت للداي وأعضاء ديوانه (Venture, 1898, p 202).

#### 4.2 مراسيم شرب القهوة:

يعتبر شرب القهوة بين الأشخاص والشخصيات السامية في الفترة العثمانية موضة في مختلف أرجاء الامبراطورية (دودو، 1975، ص 64)، ولم تكن الجزائر بعيدة عن هذا النسق بل اعتبرت القهوة مشروب الترف والبذخ وبديلاً عن شرب الخمر (شالر، 1982، ص 88)، ولهذا جرت العادة في قصر باشوات الجزائر أن تُستقبل الشخصيات المرموقة كالباي أو الخليفة أو القايد أو الشيخ أو سفير دولة أجنبية أو قنصل بمقابلة الداي بجلسة على قهوة تقليدية بينما هم يتحدثون عن شؤون زيارتهم (كانكارت، 1982، ص 218) وعادة كانت تقدم هذه القهوة دون استعمال السكر (احميدة، 2003، ص 74) بل وقد كانت هذه العادة سارية في كل المراسيم الرسمية للدولة، ففي كل صباح حين يفتتح القصر يتجه الداي إلى الديوان ليستقبل أعضاءه الممثلين في الخزناجي والأغا وخوجة الخيل والكتاب الأربعة، فبعد تقبيل كل واحد منهم ليد الداي يجلسون لشرب القهوة التقليدية بينما هم يناقشون شؤون الدولة (Venture, 1898, p119)، وعادة ما تقدم هذه القهوة في فناجين خاصة تكون كبيرة حين تقدم لشخصيات نافذة مثل الباي (كانكارت، 1982، ص 118)، وما يهتّم من هذا البروتوكول عن انطباعات القناصل الذين كانوا جزءاً من هذه العادة فهل ورد عنهم ما كان يضجرهم منها؟ وإن كانت شيئاً مقبولاً فلم؟

في الحقيقة لم ترد أي إشارات في مراسلات ومذكرات القناصل خلال القرن 18 والربع الأول من القرن 19 عن تدمير واضح عن هذا البروتوكول، ونحن نعتقد أن سبب ذلك يعود لآثارها التي كانت تعود بالإيجاب على عبود دولتهم، حيث كانت تحضر هذه القهوة وما معها من أمور تنظيمية من طرف العبيد المسيحيين الذين يعملون في القصر، أما عن تقديمها بصفة رسمية فكانت من مهام رئيس العبيد (Venture, 1898, p 55)، وحين الانتهاء من الجلسة كان يجب على الزائر ترك قطعة من النقود الذهبية على صحن فنجان القهوة، تكون على مستوى مرتبة الزائر الذي نال شرف شرب القهوة مع الداي، وهذه المبالغ يجمعها القهواجي ويضعها في صندوق مغلق محفوظ في منزل الداي الخاص، ويقوم الداي بإضافة مبلغ من ماله الخاص إلى محتوى الصندوق، ثم يوزع ربع هذه العملية مرتين في السنة على الأسرى طبقاً لرغبات الداي، وتبلغ حصة الأسير من هذا الدخل حوالي ثلاثة دولارات في السنة أو أقل ولكنها قلما تنزل عن دولارين اثنين.

وبهذا لم تبد أي إشارات تضر من القناصل وإن وردت من السفير الأمريكي دونالد صون فقد كانت لجهله بالمراسيم المتبعة في الإيالة، ذلك أن هذا المبلغ يكفي لمواجهة تكاليف حاجيات الأسير من كسوة ووسائل تنظيف ولتقديم مساعدة لزملائه الذين يعملون في الأشغال الشاقة في السجن بينما كان مأكله ومشربه مأمّن في القصر (كانكارت، 1982، ص ص 110، 218).

#### خاتمة:

عرفت مراسلات ومذكرات الشخصيات الأجنبية النافذة العديد من الإشارات والفقرات التي تتحدث عن المناسبات الدينية والبروتوكولات الرسمية، وبأخذنا للنموذج الذي يحتوي على إشارات وانطباعات عن المناسبات المتمثل في شهر رمضان الكريم والعديد، وجدنا أن مناسبة رمضان كانت محط إعجاب لهم مع بعض التحفظات التي سجّلت بسبب تأجيل أعمال مهمة أو بالأحرى القيام بالمهام بوتيرة ضعيفة، وهذا نظرا لطبيعة المناسبة التي عادة ما ينشغل فيها الإنسان المسلم للعبادات ويتفرغ لها، أما مناسبة العيد فوجدنا أن هنالك تجليات خُصّ بها أكثر من شهر رمضان، حيث اعتبرت أقلام الشخصيات النافذة أن البروتوكولات المعتمدة فيه كان الهدف منها إبراز أبهة وقوة السلطة وتعظيمها في نفوس جميع الحاضرين سواء تعلق الأمر بالرعية أو الشخصيات النافذة، كما اعتبرت المناسبة بالنسبة للقناصل فرصة من أجل قضاء مصالحهم سواء بتحقيق إنجازات دبلوماسية أو بمحاولة منع الآخر من تحقيقها، وهو ما يتناسب مع طبيعة تواجدهم بالإيالة حيث الغاية القصوى منه هو الحرص على سلامة مواطنهم وتحقيق مصالح دبلوماسية تعود بالنفع على بلدانهم.

وأما فيما يخص البروتوكولات الرسمية فقد تمّ التركيز في كتابتهم على طريقة استقبالهم ومبعوثهم ومرورا بدخولهم القصر ووصولاً إلى الجلسة الشرفية مع الداي، فإن القناصل بشكل أكبر من باقي الشخصيات النافذة قد أبدوا تقبلهم لعادة واحدة تمثلت في شرف نيل شرب القهوة مع الداي، ولكن في نفس الوقت كانوا ينكرون ويتمردون على البروتوكولات الأخرى خصوصاً عادة تقبيل اليد التي اعتبروها إهانة لهم وحالوا بكل ما أوتوا وبضغط من دولهم لأجل التخلص منها، وهو حدث ما يعتبر تحوّلًا عميقاً في مستوى البروتوكولات الرسمية بإيالة الجزائر ويستدعي البحث أكبر عن زمنية ترسيم البروتوكولات من طرف الإيالة والتحوّلات الطارئة فيها.

## المصادر والمراجع:

المنشورة باللغة العربية:

- أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان (1830-1855)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.
- السعيد بوطاجين: هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا – المقاومة المركبة-، مجلة الموروث، العدد 02، الجزائر، 2013.
- بلعمري فاتح، حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 في عيون رحالة محلي وقنصل أجنبي، مجلة معارف، العدد 17، الجزائر، 2014.
- بليل رحمونة: القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564 إلى 1830، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، وهران، الجزائر، 2011.
- بن عتو بلبروات: نظرات استشرافية لعادات وتقاليد مجتمع الجزائر العثمانية – مدينة الجزائر نموذجاً - ، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 02، الجزائر.
- ج.أو. هابنسترايت: رحلة العالم الألماني: ج.أو. هابنسترايت (1145-1732)، تر: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس.
- عميراوي احميدة: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا نموذجاً)، دار الهدى، الجزائر، 2003.
- كانكارت: مذكرات أسير الداوي كانكارت قنصل أمريكا في المغرب، تر: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
- منصف التايب: "عوائد عيد الفطر في عهدي حسين بن علي و علي باشا": الدلالات السياسية و الاجتماعية والثقافية"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 74، 1994.
- هاينريش فان مالتزان: ثلاث سنوات في شمالي غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، الجزء 3.
- وليام شالر: مذكرا وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- المنشورة باللغة الأجنبية:

- ,Revue Africaine, - Albert Devoulx: Un incident Diplomatique a Alger en 1750  
volume 16, 1872.
- La vie d'un consul auprès de la régence d'Alger , Revue Africaine, 1924. - Bardoux,j,  
- D. De Grammont, Correspondance Des Consuls d'Alger ( 1690-1742),Librairie  
Ernest Leroux, Paris, 1890.
- Eugène Plantet, les consuls de France a alger avant la conquête 1579-1830.  
,Messagerie hachette, Paris , 1930.
- ,Revue - Pierre GrandChamp: Le baise main des consuls à la cour des bays de tunis  
Africaine, Volume 89, 1945.
- Venture de Paradis , Alger au XVIIIe siècle, Typographie Adolphe Jourdan, Alger,  
1898.
- Tunis et Alger au XVIII e Siècle, Sindbad, Paris, 1983.
- M.Emerit, Les aventure de Thédénat ,esclave et ministre d'un bey d'Afrique au  
18<sup>eme</sup> siècle,Revue Africaine , volume92, 1948.

### الهوامش:

: من مواليد سنة 1767 بمقاطعة ميث الغربية بإيرلندا، Leander cathcart James جيمس ليندر كانكارت<sup>1</sup>  
انتقل مع والده إلى أمريكا في سن مبكرة، وكان يشتغل في سفينة ماريا بوسطن " التي استولى الجزائريون عليها في  
شهر جويلية سنة 1785، و لم يدم إلا مدة قصيرة في أسرهم حتى أصبح موظفا ومديرا لمكتب الداي حسن باشا  
في الجزائر، حيث عمل كمفاوض بين الداي و سفراء الولايات المتحدة الأمريكية، و في سنة 1796 عاد كانكارت  
إلى الولايات المتحدة يحمل معه رسائل تتعلق بصياغة بنود معاهدة السلام مع الجزائر، و قد شغل وظيفة  
حكومية في فيلاديفيا لمدة سنتين قبل أن تعينه حكومته قنصلا عاما في تونس و طرابلس، وقد بلغ مجموع  
السنوات التي قضاها في مختلف الأماكن بصفته قنصلا أكثر من عشرين سنة، ثم عاد إلى الولايات المتحدة  
ليعيّن في مناصب إدارية في كل من لويزيانا، وواشنطن، وقد توفي يوم 6 أكتوبر 1843م. للمزيد ينظر إلى :  
كانكارت، 1982، ص ص 9-10.

- : طبيب وعالم نبات ألماني، من مواليد مدينة نوشتادت أون أورلا J.E.Hebenstreit ج.أو هابنسترايت<sup>22</sup> ، Leivinas ، الواقعة بمقاطعة الساكس بألمانيا، وقد درس الطب في شبابه واستقر بلاييزغ Neustad Orla وقد تميز بحس المسؤولية والانضباط في العمل ما أكسبه ثقة ملك بولونيا، فكلفه برئاسة بعثة علمية إلى شمال افريقيا للتعرف للبحث والاستكشاف حول الحياة النباتية بالمنطقة لقائدة القصر الملكي، وقد نجح في مهمته كثيرا حيث نال ثقة باشا الجزائر. للمزيد ينظر إلى : هابنسترايت، د ت، ص ص 12-14.
- بفرنسا سنة 1757 وقد وقع أسيرا في أيدي الجزائريين في 12 Ozés: ولد بمدينة أوزس Thedénat تيدينا<sup>3</sup> فيفري 1779 واشتراه الباي محمد الكبير باي معسكر، فوظفه في قصره خزانجا وحين تم اقتداؤه خلال سنة 1782, Emerit 1948 p 134, عيّن مندوبا للعلاقات التجارية بمدينة سافوي سنة 1799. للمزيد ينظر إلى : هاييزيش فان مالتسان: هو عالم آثار ألماني له كتاب ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا بجزأين، ويعتبر هذا الكتاب علامة فارقة في أدب الرحلة وهو ينقل حياة المدن وتاريخها، ويسرد مواقفه من المشاهد اليومية ومن سلوك الاشخاص بقدر كبير من الملاحظة والنباهة ( السعيد، 2013، ص 87).
- : عين قنصلا للولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر ما بين سنوات 1816-William shaler ويليام شالر<sup>5</sup> 1824، وأنجز مؤلفا عن حياته الدبلوماسية بالجزائر. للمزيد ينظر إلى: بلعمري، 2014، ص 23.
- : هو جون ميشال فونتور دو بارادي، ولد في 08 ماي 1739 بمرسليا Venture de Paradis فونتير دوي بارادي<sup>6</sup> فرنسا، وقد عمل مترجما في عدد من القنصليات الفرنسية، وقد عين في الجزائر بين سنتي 1788 و 1790 Venture de كمفاوض لتسوية الخلافات التي طرأت بين فرنسا والجزائر في تلك الفترة. للمزيد ينظر إلى: Paradis ,1983, PP9-10.